(3)
شرق المتوسط[1]
رواية لعبد الرحمن منيف

في رواية شرق المتوسط، يشرح الكاتب ما يحدث للإنسان الحر في مكان ما من العالم هو بالتحديد شرق المتوسط، ولماذا اختار شرق المتوسط؟

لأن الظلم والقهر في رأيه يبدو أكثر وضوحًا وشراسة وإنهاءً للشخصية الإنسانية.

وبطل القصة مناضل مثقف يمضي خمس سنوات في السجن يرى فيها جميع أنواع العذاب ومع ذلك فإنه يتأخر في الاعتراف على أصحابه الذين هم خارج السجن رغم كل الضغوط الجسمانية والنفسية، هذه الضغوط تأتيه من الداخل في شخص سجانيه، ومن الخارج ممثلة في أخته أنيسة التي أخذت دور الراعية الأولى له بعد وفاة والدتهما.

لقد كانت والدة رجب إسماعيل وراء صموده، وحذرته مرارًا من أن يعترف على زملائه، كانت ترى في ذلك نوعًا من العار الذي يمكن أن يلحق بالأسرة، ولا يهم أن يعاني ابنها هموم وقذارات السجن طالما أن لا أحد يتهمه بالخيانة كما فعل بعضهم.

والمرأة في الرواية لعبت دورًا إيجابيًا محدودًا تمثل في وقوف الأم وراء ابنها المعتقل الذي يحظى بحفلات تعذيب يومية، ولا بد أن هذا الدور الإيجابي قد أدى إلى وفاتها غيظًا وقهرًا، فهي إن كانت تدفعه إلى الصمود، فإنها من الداخل استنفدت كل رصيدها من الصبر، ولم يكن

(1) عبد الرحمن منيف - شرق المتوسط - دار الجنوب للنشر - تونس.

بإمكانها تبديل الأدوار " قبل موتها بعشرة أيام... كان يوم خميس. ذهبت مع أمهات ونساء المعتقلين لمقابلة وزير الداخلية لا أعرف من الذي أقنعها بالفكرة، لكن خلال أيام لم تهدأ ولم تتعب وهي تنتقل من بيت لبيت، حتى تجمع عددًا من النساء ويوم الخميس ذهبن لمقابلة الوزير. لم يسمح لهن بالدخول، أو بمقابلته، ولا أعرف من اقترحت ألا يتركن المكان حتى يصلن إلى نتيجة. كشفن عن رءوسهن، ونفشن شعورهن، وبدأن بالصراخ والعويل، وقد صممت كل واحدة منهن أن تموت... أنت تعرف موقف الشرطة، بدءوا بالضرب، بالصراخ، لكن لا فائدة. ولما حاول الوزير الخروج هجمن عليه. ويبدو أن الضربة التي تلقتها على أضلاعها عجلت في نهايتها"[1].

كان صديق رجب في السجن وليد محقًا حين قال "السجن والمرأة لا يجتمعان وبداية انهيار السجين أن يسيطر عليه شبح امرأة. كفوا عن هذا المرض أيها الثيران... اخصوا أنفسكم لينتهي عذابكم!"[2].

وفعلا فإن رحلة استسلام رجب إسماعيل تبدأ بعد موت أمه. فشبح حبيبته هدى لم يفارقه، ورسائلها المهربة لم تنته عن طريق أخته أنيسة، كانت هدى تشد رجب إلى الخروج إلى عالم الحرية، وشوقه إليها جعله أكثر ليونة وطواعية، لكن هدى لم تصمد طويلا، إحدى عشرة سنة سيقضيها رجب في السجن كانت طويلة عليها، أرسلت له في السجن مخبرة إياه بأن هناك من أراد الزواج منها " أنا مرغمة على الموافقة يا رجب، ولكن سأحتفظ بالذكرى إلى الأبد"[3].

إذن هدى الحبيبة - الحلم لم تنجح في إكمال دورها بتحفيزه إلى الحرية بأي شكل من الأشكال، وكان ممكنًا على حسب التطور الطبيعي للأمور أن يتم ذلك، لكنها تعجلت واختارت الحل الأسهل تمامًا كما تفعل

(1) عبد الرحمن منيف - شرق المتوسط - 55.
(2) المصدر نفسه - 54.
(3) المصدر نفسه - 54.

أغلب النساء (هذا أحبه، وهذا أريده) (عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة). لكن النساء لسن فقط أم رجب وحبيبته هدى، هناك الأخوات وهن أكثر التصاقًا بإخوتهن، ويلعبن دور الأم حين تغيب، فهل هو الصمود من جديد؟

أنيسة تبدأ بمفردها رحلة دفع رجب إسماعيل إلى الخنوع والاستسلام وربما كان ذلك مقبولا فهو شقيقها، وهي لا تحتمل أن تراه وهو مريض يعاني فوق ذلك عذاب السجون، وهي لم تكن تلك الشخصية الصلبة التي تتحمل كل ذلك، إنها شخصية طبيعية حتى وإن وصفت بالسلبية، بدأت أنيسة عملها بإبعاد رجب عن هدى " تزوجت... تزوجت وسافرت. عادت من السفر ولم أرها إلا بسرعة. يبدو أن هدى تفضل هذا اللون من الحياة: الراحة، والبعد عن المشاكل!"[1].

ولا تنسى أنيسة أن تذكر لرجب ما جرى لرفاقه الذين رفضوا مثله الخنوع " باسل جُن، أصبح يدور في الشوارع عاريًا... خالد فقد عينه نتيجة الضرب، وعينه الأخرى مهددة.

ومحسن... ألا تتذكر محسن؟ لقد أصيب بالشلل. وعندما حملوه إلى البيت ورأته أمه ماتت "[2].

ولا تترك أنيسة فرصة تمر دون أن تحدثه عن كيف يعيش أنور عبدالكريم ونجيب الذين رضخوا لمطالب السلطة، هم أحرار أحدهم تزوج والآخر سيواصل دراسته، وقد طلبوا منها جميعًا أن تنصح رجب بالتعقل[3].

أصبحت أنيسة نافذة رجب على الحياة، وهي نافذة لا يظهر فيها إلا منظر واحد متكرر يردد روعة الحياة خارج السجن وكيف أنها تسير برجب أو بدونه، ولا بأس أن يحاول اللحاق بركبها فحامد زوجها اتصل

(1) المصدر نفسه - 57.
(2) عبد الرحمن منيف - شرق المتوسط- 59.
(3) المصدر نفسه- 58.

بمدير السجن وطلب منه علاج رجب بالخارج، وقد وافق المدير بشرط أن يتعهد رجب بترك العمل السياسي، وصحة رجب صارت لدى أنيسة سيئة جدًا، وما دامت أنيسة قد قالت ذلك فلا بد أن يكون الأمر كذلك، وحبيبته هدى صار لها ولدان أحدهما راجي والآخر عدنان، أما أنيسة نفسها، فقد تعبت ولحقت بها جميع الأمراض في سبيله، وحتى زوجها حامد لم يعد يطيقها، لقد حلمت بخروج رجب من السجن، " حلمت أول أمس خرجت من السجن... لم تخرج ماشيًا... خرجت على نقالة إسعاف، تصور يا أخي أني لم أستطع أن أذوق طعامًا منذ أول أمس، وطوال الوقت أبكي، وقد غضب حامد ووجه لي كلمات قاسية"[1].

وهكذا في إحدى الأمسيات قام رجب إسماعيل بالتوقيع على ما طلبوه منه ليخرج من السجن إلى بيت أخته، يعد العدة للسفر إلى الخارج للعلاج من أمراضه المزمنة والمستحدثة.

وخارج أرض الوطن يكتشف رجب إسماعيل أن مرضه لم يلغ رجولته ويكتشف جمال الطبيعة والحياة ويندفع في الحديث عن ماضيه وبطولته، ويلتف حوله بعضهم، ويعرف آخرون أنه لم يخرج من السجن إلا بعد أن قام بما طلب منه في الاعتراف على زملائه والتعهد بعدم العمل في السياسة، وها هي السياسة تعود لتبدو لرجب إسماعيل لذيذة وضرورية.

وأمام ذلك لا تجد السلطة خيارًا غير أن تقبض على زوج أخته، وعلى الرغم من ذلك فإن أخته وزوجها لا يشجعانه على العودة، في حين تعتبر السلطة أن (حامد) هو الرهينة الضامنة لعودة (رجب).

ويعرف رجب حقيقة الوضع الشائك فيقرر العودة فورًا، ليأخذه الجنود إلى حيث كان ولكنه لا يطيل الغياب، فقد أعادوه بعد أيام ميتًا بينما انهمك (حامد) زوج الأخت في النضال الحقيقي، وأصبح ابن

(1) المصدر نفسه- 60.

الأخت مناضلا آخر يحاول تفجير السجن الذي يحتضن أباه.

لقد فعلت أنيسة كل شيء لتسعد هي وعائلتها وشقيقها، غير أن القدر يخط أمرًا آخر يموت فيه الشقيق ويسجن الزوج ويصبح الابن مطلوبًا من السلطة.

هذه هي الرواية التي حازت منذ السبعينيات على استحسان النقاد في كل أنحاء الوطن العربي وترجمت إلى لغات عالمية عديدة، ولا شك أن ذلك كان بسبب تناولها لموضوع يعاني منه العالم الثالث عمومًا وبلاد المشرق العربي خصوصًا وهو يتعلق بالحريات العامة والحقوق الفردية والعامة للإنسان.

وقد نما في كتابة هذه الرواية - اتجاه لتناول الهموم الوحدوية والقومية للوطن العربي تمثل في روايات الطاهر وطار وحليم بركات ومطاوع صفدي والطيب صالح وسهيل إدريس، غير أن عبد الرحمن منيف اختار موضوعًا أكثر حساسية ومساسًا بالمواطن العربي حسب ما يرى الباحث.

فأن يحلم كاتب بوطن عربي واحد، وبأمة عربية ناهضة يرى الباحث أن ذلك الكاتب يجب أن يحلم بتحقيق الحد الأدنى من التعليم والوعي، وهذه أشياء يرتبط مناخها بالديموقراطية والحريات العامة، وتلك أمور تكاد تكون معدومة في أنحاء الأمة، اتحاد الأصفار إذن لن يرفع من الإجمالي العام، رغم أن الفكر القومي لا يغيب عادة عن كل الأجيال العربية المثقفة كما في حالة الكاتب عبد الرحمن منيف.

يرى الباحث إذن أن الرواية تصب ولو من بعيد في الفكر القومي من باب معالجة معوقات خروج هذا الفكر إلى النور، فزملاء رجب ليسوا فقط مثقفين ومتنورين لكنهم أيضًا كادحون يناصرون الطبقات الفقيرة " أتذكر الحاج رسمي أبو جعفر... ربطوا يده وراء ظهره، أوقفوه في ساحة السجن، أمام عشرات السجناء وبدءوا يسخرون منه: مثل أبو هريرة

تقول للفقراء أن يثوروا، يا حاج كلب، يا حاج خرا"[1].

ويلحظ الباحث أن خيوط الرواية من الناحية الموضوعية ترتكز على إدانة القهر أولا وقبل كل شيء باعتباره جزاءً غير شرعي وغير إنساني لمسألة الاختلاف في الرأي، بل إن الكاتب لا يكتفي بالإدانة وإنما يجعل من روايته- المليئة بالتفاصيل لحفلات التعذيب النفسي والجسدي - وثيقة تسجيلية تعبر عن مدى الظلم والتسلط الذي يعانيه الناس في بعض البلاد العربية، وإذ كشف الكاتب عن إدانته لهذا الانتهاك الصارخ للحقوق الإنسانية، فإنه ربط ولو بشكل غير مباشر بين الهموم الكثيرة التي يعانيها المواطن العربي، فهؤلاء الذين يتعرضون للسجن والتعذيب جريمتهم أنهم يدافعون عن الناس، ويرفعون لواء التضحية في سبيل أن يعيش المواطنون في بلادهم آمنين، يحصلون على لقمة العيش التي تبعدهم عن الفقر، وعلى الحق في التعليم والمعرفة.

المواضيع في هذه الرواية إذن مرتبطة بحيث أن كلا منها يؤدي إلى الإدانة، دولا وحكومات لا تعمل من أجل أن تعيش شعوبها في أوضاع طيبة ماديًا ومعنويًا، تلجأ للقمع عندما تعترض فئات من هذه الشعوب على تلك التصرفات، وقد كان رجب إسماعيل ورفاقه من بين هؤلاء الذين يضحون " في الأيام الأولى كنت أسأل نفسي مئات المرات، والعالم الخارجي، ألا يزال موجودًا؟ والمقاهي أتستقبل البشر؟ ودور السينما ألا تزال الحفلتان في المساء، الأولى الساعة السادسة والثانية في التاسعة؟ والشوارع والأضواء ورجل ينتظر امرأة على محطة الباص؟ تصورت العالم الخارجي في لحظات معينة يتوقف، ينتهي"[2].

وبطل الرواية إذا ما عد رجب إسماعيل بطلا، واع بكل ما يحدث له، لكنه يريد أن يعي الجميع ما يحدث لهم، وليس من الضروري أن يزوروا السجن حتى يعرفوا ذلك.

(1) عبد الرحمن منيف - شرق المتوسط - 187.
(2) عبد الرحمن منيف - شرق المتوسط - 140.

ومع وعيه فهو مريض، فقير، مناضل، ورغم أن نضاله يقوده إلى السجن فإنه يظل حتى في السجن صامدًا إذ لا يحتمل أن يوصف بالخيانة، في حين يضعف آخرون ويفضلون إتمام الصفقة بسرعة مع الدولة ليتمتعوا بحرياتهم ولو على حساب زملائهم الآخرين.

ويؤكد الباحث أن النقاد لم يختلفوا على هذا الاختيار المتميز لموضوع الرواية في زمن كتابتها، فقد اشتهر الشرق العربي في تلك الفترة بممارسات جائرة كان ينبغي التنويه بها ليس فقط بالطريق المباشر المتمثل في المقالات الصحافية والمنشورات السرية واللجوء إلى وسائل الإعلام الخارجي، بل أيضًا بواسطة الرواية فالرواية صارت هي (ديوان العرب) إضافة إلى أهميتها عالميًا.

والكاتب - الراوي في الشرق المتوسط لا يدعي البطولة كما نرى في العديد من الأعمال الروائية، إنه فقط يحكي مأساتنا جميعًا، وفي المقابل يخضع لضغوط شقيقته في مهادنة السلطة، ويفرح بمصافحة الحياة الحرة عندما يطلق سراحه، أما البطل الحقيقي، فهي الأم التي وقفت وراءه من دون حدود لكيلا يستسلم لسجانيه وظلت إلى حين وفاتها سندًا له في تحمل الآلام الجسدية والنفسية.

ويلحظ بعضهم أن شخصية أنيسة وهي إحدى الشخصيات الرئيسة في الرواية تقوم بدور سلبي يدفع رجب إسماعيل إلى المهادنة حتى إنها تمنع عنه أخبار حبيبته هدى والعكس لتنتهي علاقتهما، ويرى الباحث أن هذه الشخصية واقعية بمعنى الكلمة، فلا يتصور أن تتراكم الشخصيات جميعها لتقوم بدور واحد مماثل في الرواية، فمن شخصية أنيسة وجدنا ذلك التناقض المفترض مع شخصية الأم وهو تناقض يقدم البعد الآخر لشخصية رجب أيضًا فهو على الرغم من ثورته على أنيسة لا ينكر أنها قد أعادت له حريته، وقد تكون إعادة الحرية، إعادة لتأجيج روح النضال في الجسد والنفس المستهلكين.

وما يؤكد على ما نراه أن أنيسة ترفض إخبار رجب عندما عاد لنشاطه في الخارج باعتقال زوجها، وحتى عندما تسرب له الخبر فإنها لا تطلب منه العودة " سألت عبد الغفور: هل رأيت أختي، هل قالت لك شيئًا؟ كان حزينًا وهو يقول: رأيتها، قالت أتمنى أن يبقى رجب في فرنسا، ولكن يبدو أن بقاءه سيكلفنا غاليًا"[1].

لقد أبدت أنيسة قوة وصلابة ولكن ليس في شحذ عزيمة رجب على العموم وإنما ركزت على المهادنة، وكان رجب يعي ذلك لكنه استسلم لها "أنيسة لا تريد شيئًا في الدنيا إلا أن تراني أمامها "[2].

الرواية كذلك تحفل بالشخصيات المتناقضة لأنيسة فإلى جانب الأم فهناك حامد (زوج الأخت)، وعادل (ابن الأخت) وعبد الغفور (صديق الغربة)، فها هو حامد يرفض عودة رجب رغم متاعبه مع السلطة بسببه "قال لي ليبقى حتى يشفى، ليبقى أطول فترة، ماذا يريد أن يفعل هنا في بلاد السراديب؟"[3].

ولا شك أننا جميعًا ننحاز إلى مثل هذه الشخصيات الإيجابية التي تدفع بالإنسان إلى مقاومة الظلم والقهر والمرض والفقر والجهل، لكن الباحث لا يتصور أن يقوم أفراد بالتضحية في حين تمر هذه التضحيات بدون مجرد التفات إليها من الذين يفترض أن تتم التضحية من أجلهم، وهذا ما دعى عبد الغفور ومن ورائه كاتب الرواية إلى اتهامنا جميعًا بأننا وراء هذه المأساة ".

"- أتعرف لو أن رسامًا عندنا رسم هذه اللوحة لضربوه بالحجارة ! أتعرف لماذا؟

- لا !.....

- لأن الحضارة سلم ليس له نهاية، ويجب على الشعوب أن تبدأ من

(1) عبد الرحمن منيف - شرق المتوسط - 187.
(2) عبد الرحمن منيف - شرق المتوسط - 140.
(3) عبد الرحمن منيف - شرق المتوسط - 208.

أول السلم وشعبنا لم يكتشف بعد السلم ولم يسمع بشيء اسمه حضارة، لذلك فإن كل محاولة لإقناعه بغير ذلك خطأ.....

- هل تقصد بأن طريقة الرسم غريبة، أم الموضوع؟ كلاهما: الطريقة والموضوع.

- الطريقة ربما، أما الموضوع، فإن مهمة الفنان استلهام قضايا شعبه، المآسي، الأحزان، الطموحات، وهذه اللوحة مأساة كبيرة، وقد استطاع بيكاسو أن يقود ثورة من خلال هذه اللوحة.

- كان بيكاسو يقود شعبًا استوعب الحضارة... أما هناك فإنهم لم يستوعبوا شيئًا.

- عليك إذن أن تساهم !

- علي أن ألعن القدر الذي جعلني أولد على ذلك الشاطئ "[1].

وجاءت الرواية من الناحية الفنية متكاملة وفقًا للمعايير السائدة للرواية فالاستهلال والحبكة والنهاية، كانت واضحة، مع استعمال أساليب الاسترجاع والحوار الفردي الطويل والقصير، وبصفة عامة كان التكنيك الروائي موفقًا.

والرواية على خلاف ذلك تميزت باستعمال الكاتب لراويين محاولة منه لجعل القارئ يشعر بواقعية الأحداث، فقد تبادل رجب إسماعيل وشقيقته أنيسة رواية الأحداث كل من وجهة نظره، ومع ذلك فلم يكن التباين كبيرًا بالرغم من اختلاف الشخصيتين بل كان ذلك أدعى للتكامل.

وعلى سبيل المثال فقد كانت أنيسة تنيرنا عما لا نعرفه عن رجب، أو ما يتحرج من الحديث عنه " إن رجب الآن ليس رجب الذي أعرفه تغير كثيرًا، رفض استقبال أحد من أصدقائه، كان فظًا وهو يصرخ في وجه عادل، ويطلب مني أن أقول للذين جاءوا بأنه غائب ولن يعود قبل

(1) عبد الرحمن منيف - شرق المتوسط -202.

منتصف الليل... وعمتي آه لشد ما غضبت، ولأول مرة رأيتها تبكي بهذا الشكل، أمسكها من كتفها وهزها بقوة يريد أن يوقعها على الأرض. لم تكن تدري أن زغرودة فرح يمكن أن تسبب له مثل هذا الغضب، ظنت أول الأمر أنه يداعبها، لكن عندما توالت هزاته القاسية خافت، وتوقفت، نظرت إليه بتساؤل واستغراب، فلما رأته غاضبًا والكلمات تتطاير من فمه، تراجعت وهي تنظر إلي وتسألني بعينيها، لم أكن أعرف ما ينبغي أن أفعل، اقتربت منها، احتضنتها حتى إذا رأت دموعي، انخرطت في البكاء، أما هو فقد دخل الغرفة وأرتج الباب وراءه صاخبًا عنيفًا "[1].

وبالمقابل يصف لنا رجب شخصية أخته، ويقدم لنا وجهة نظره، حيث تبدو له الطريق التي تقود للاستسلام والمهانة لكنه لا ينسى أنها لامست في نفسه هوى أراد أن يكتمه ولا يظهره، غير أنها بحكم صيرورتها أختًا وأمًا انتزعت من داخله ذلك التوجه الغائم وأعطته من نفسها حبًا واهتمامًا، فخرج على شكل رآه بعضهم واستسلامًا وخيانة، وقد ينظر إليه آخرون باعتباره إنقاذًا وتجديدًا للنضال.

واللغة عند الكاتب ترتفع ملاحقة ارتفاع موضوع الرواية، ولا نلحظ مع إغراق الكاتب في سرد التفاصيل وتفاصيل التفاصيل، أقول لا نلحظ سقوطًا لغويًا أو هنات في السرد أو في الحوار، كما لا يلجأ الكاتب إلى الإغراق في البحث عن تعبيرات معينة بل يترك لشخصياته مجال الحديث وفقًا لثقافتها وبيئتها التي تعيش فيها.

غير أن الكاتب عندما يتعلق الأمر بالحوار لا يسمح للقارئ بتجاوز ما قاله هو وما قالته شقيقته كراويين، أما الآخرون فتأتي آراؤهم قصيرة أو من خلال السرد، فنحن إذن نسمع كثيرًا عن بقية شخصيات الرواية ولا نقابلهم، وبالطبع اختلاف رجب وأنيسة أو تكاملهما يسمح لنا بتكوين عقائد مختلفة ومتكاملة عن بقية الشخصيات المهمة كهدى والأم وهادي وحامد.

(1) عبد الرحمن منيف - شرق المتوسط - 68.

وعبارات الرواية في مجملها مملوءة حرارة وغليانًا يحس القارئ والناقد أنهما ليسا مصنوعين وإنما يمثلان دفقة إنسانية استوطنت الكاتب ولم يكن له إلا فضل توثيقها على الأوراق، مع أنها تمثل تجربته الخاصة في الحياة مريضًا بالقلب في سجن شرقي " كان يوم اثنين أول يوم بعد عيد الفطر. قبضوا علي قبل نهاية دوام يوم الخميس. كانوا يتراكضون، لم ينظروا إلي طويلا، قال نوري وهو يصرخ مثل ثور:

- هذا بعهدتك، جديد، وأريدك أن تعتني به!

أمسك بي حاتم آمر الحرس، مثل قط أجرب، أمسك بكتفي وقال بلهجة آمرة:

- افتح السرداب يا عبد.

دفعني أمامه. صرخت بتحد:

- أنا مريض بالقلب، ولا أستطيع أن أنزل إلى القبو !

- أتذكر أني رأيت الباب يفتح، ثم رأيت بقعة الدم وقد غطت مساحة واسعة من أرض القبو، لا أعرف كيف نزلت الدرجات العشر. حصل ذلك في لمح البصر ضربني حاتم على وجهي بظهر يده، وفي اللحظة التالية أحسست برجل تضربني على ظهري وأهوي، لم يدم ذلك وقتًا طويلا، حصل بسرعة، كان القبو صغيرًا لدرجة أن ثلاثة أشخاص لا يمكن أن يناموا فيه، أما الجدران والسقف، فقد كانت متقاربة لزجة، والنافذة الصغيرة، والتي تشبه شقًا، كانت تستقبل ضوءًا باهتًا ينزلق إليها من أرض الحوش "[1].

(1) عبد الرحمن منيف - شرق المتوسط -120- 121.